الفصل السادس عشر

فرصة جديدة للعيش

أنعشت التطورات الجديدة بصيص الأمل بـأن الإجـراءات المتطرفـة يمكـن تجنبها. وصلت رسالة من القائد ياسين بك في الرطبة في المنطقة البريطانية تدعـو الأمير فوازاً إلى مؤتمر في تلك المدينة. وقد أبدى القـائد اسـتعداده للتفـاوض مـع زعيم الرولة بشأن قبولهم في المراعي والآبار في العراق.

قرر فواز قبول الدعوة. فلـو اسـتطاع التوصـل إلـى اتفاقيـة مـع ياسـين بـك وصادقت عليها السلطات البريطانية ـ فإن ذلك يعنـي أن القبيلـة كلهـا تسـتطيع أن تقضي الصيف بأمان قرب الفرات؛ ولذلك سيذهب إلى الرطبـة، وسـيكون ذهابـه محاولة أخيرة لإنقاذ قبيلته بالوسائل السلمية من مأزقها الخطير.

ولكن أخباراً أخرى عكّرت هذا الاحتمال. عاد مبعـوث مـن الرولـة ــ فـي الحقيقة جاسوس ـ إلى المخيم بمعلومات تفيد أن ياسين بـك يقصـد الخيانـة وأن دعوته ليست سوى فخ. فعندما يصل الأمير فواز إلى الرطبـة يلقـى فـي السـجن أو يقتل بهدوء. وهذه المعلومات تأكدت برسالة من أحد اصدقاء الرولـة المخلصيـن في الرطبة، وهو جندي في سلاح الهجانة هناك. ادّعى الصديق أن لديه معلومـات عـن تعليمـات سريّة أصدرهـا القـائد وقـد انسـجمت هـذه الأخبـار مـع أخبـار

obeikandl.com

الجاسوس. ولكنني لم أستطع تصديق ذلك. بدا لي من غير المعقول أن يفكر ياسين بك بمثل هذا العمل، والدلائل ليست كافية بل أقرب إلى الإشاعة.

وبحثت القضية مطوّلاً في المجلس، وقد عبر محجم ـ شقيق الأمير عن قناعته بوجود خطر الفخ الخطير وطالب بالحذر الشديد. وتقضي خطته أن يذهب الأمير فواز مع مرافق واحد خبير بالتجسس ويتوقف عند مسافة مأمونة من الرطبة. وهناك يختبئ فواز بينما يتابع المرافق سفره بحذر إلى القلعة ليتأكد من صحة الوضع. لكن نصيحتي كانت غير ذلك، فقد اقترحت على فواز ألا يقترب من الرطبة ويتوجه مباشرة إلى بغداد للتفاوض مع السلطات البريطانية العليا مباشرة. لكن خطة محجم هي التي نفذت.

غادر فواز بالسيارة إلى الرطبة مباشرة بعد الاجتماع وأخذ معه محجماً نفسه، وذلك بعد أن نقل قيادة القبيلة أثناء غيابه إلى عمه طراد بن صطّام. وفي نفس اليوم وصلت معلومات من المؤخرة أن آخر الرولة قد اجتاز الحدود، وبهذا أصبحت كل القبيلة في سورية. وعندما استيقظت مع أشعة الشمس الأولى كانت إجراءات الرحيل قد بدأت. كان قطيع الجمال قد تجاوز صف خيمتي. كانت خيام قائدنا المؤقت طراد بن صطام وأبنائه الثلاثة قد قوضت والعبيد يلفون أقمشة الخيام ويطمرون بقايا النار بالرمل.

أحضرت الجمال البيضاء لحمل نساء وبنات عائلة الشيخ، وأنيخت لنصب الهواجج على ظهورها.

حملت صغار كل جنس في الهوادج والخِرَجَة[1]. ومن هودج أحد الشيوخ العالي أطلت امرأة باسمة وعلى صدرها طفلها. وتدلى جمل صغير (لا يقدر على السير على قوائمه الضعيفة) من سلّة كبيرة معلقة على سنام أمه. وعلى الجانب الآخر أطل من الخرج وجهان فضوليان لفتاتين صغيرتين. وتجمع قطيع من الجمال الصغيرة التي لا يبلغ عمرها أكثر من بضعة أيام فأتت أُمَّاتها وتحسسّتها بخياشيمها وحاولت إبعادها.

---

(١) الخِرَجة: مفردها خُرْجٌ وهو معروف.

وقد حملت المهار على الجمال في هياكل سروج خاصة أو تدلّت مترنحة من أذرع الفرسان وهي منهكة وجائعة لأن حليب أمها قد جفّ منذ أيام طويلة. أما الكلاب فهي السمينة الوحيدة لأنها أصيبت بالتخمة من قطعان الحيوانات الهالكة.

وتزايد حجم القبيلة المجتمعة بمتاعها وقطعانها إلى درجات هائلة، ولم يحدث مثل ذلك خلال عدة أجيال، إذ إن القبيلة كلها اشتركت في هذه المسيرة التي لم تكن إحدى الهجرات العادية التي تحدث في الربيع الخريف، بل كانت إحدى الحملات القبلية التاريخية التي تحدث مرة في كل قرن.

واحتشدت مئات الآلاف من الجمال فوق سطح البرّية،وارتفعت الرقاب وهبطت بإيقاع وتماوج، وانسابت كما لو حملتها إلى الأمام حركة أرضية غير مرئية، والتهمت ـ كالجراد ـ المراعي الخضراء الرمادية القليلة أمام أفواهها الجائعة بحيث لم يبق بعد مرورها أي أثر للخضرة. ولم تترك الجمال خلفها سوى الأرض الجرداء، وفوقها يرتفع ستار من الغبار والضباب في الهواء لعدة ساعات.

سار جمل أسمر يحمل فوق ظهره هيكلاً مزيناً بالمئات من خصل ريش النعام الأسود والمزينات البربرية على رأس القبيلة المهاجرة أمام مركز الخط الأول، هذا الهيكل الكبير من خشب الأكاسيا توازن وثبّت فوق شداد ذي تصميم خاص، إنه المركب المسمى «أبو الدهور» ـ مركب إسماعيل. إنه المذبح الذي تقدم أمامه البدو لعدة قرون بنذورهم وقرابينهم. هناك مركب واحد من هذا النوع في الجزيرة العربية كلها. خلال القرون الماضية لم يكن ينتقل المركب من قبيلة إلى أخرى إلا عندما تهزم القبيلة المالكة للمركب فينتقل إلى القبيلة الأخرى المنتصرة. احتفظت الرولة بالمركب لما يقرب من مئة وخمسين عاماً. وأصبح بالنسبة لها رمز وحدتها وشعار حربها وراية القبيلة العظمى إلى حدٍ ما، هذه الراية القديمة المقدسة ــ كما يقول الرولة ــ تحركها الروح الإلهية في اللحظات الحاسمة من تاريخهم، وخصوصاً في النزاعات الخطيرة والحاسمة لتلهمهم كل

شيء، حتى المكان الذي عليهم أن يواجهوا الأعداء فيـه ويدخلـوا المعـارك . فـي هذا اليوم أيضاً توقعوا أن يروا الحضور الإلهـي والحمايـة الإلهيـة تتجلـى بـالدلائل الغامضة من الهيكل القديم على ظهر الجمل.

* * *

obeikandl.com